

إن سـبيل الله تعالــي هــو الحــقُّ الــذي لا يتعــدد، وأوضـح صفــات هــذا الســبيل أنــه لا يقبــل الانحــراف والزيــغ، فمــن زاغ عنـــه أزاغ اللهُ قلبـــه، قـــال تعالـــى: ﴿وَأَنَّ هَـــذَا صِرَاطِـــي مُسْـــتَقِيمًا فَاتَّبِعُـــوهُ وَلَا تَتَّبِعُـــوا السُّـــبُلَ فَتَفَــرَّقَ بِكُـــمْ عَـــنْ سَـبيلِهِ﴾[الأنعام: 153]فمـن لزمـه واســتقام عليــه أصــاب النجــاة والفــوز بــإذن الله تعالـــي، ومـــن أبـــي ولـــم يصبــر عـليـــه، أو اســتحـبّ غـيــره واتبـــع هـــواه فهــو فـي دركات الخسـران يتــردى، والحــق طريــق يُغنــي عــن كل طريــق، ولا يُغنــي ســواه عنـه، إذْ ليـس بعـد الحـق إلا الضـلال. ولأنـه يُغنـي بنفسـه فهـو كامـل ضمّـن الله فيــه كلُّ مــا يحتاجــه العبــاد، وأمــر ســبحانه بالدخــول فيــه كافــة دون انتقــاء، فالانتقاء منفى عنـه حتـى لا يظُـن الباطـلُ فيمـا لـم ينُتـقَ، قـال تعالى:﴿ياأَيُّهـا الَّذِيــنَ آمَنُـــوا ادْخُلُــوا في السِّــلْم كافَّــةً﴾ ولأن الانحــراف عنـــه لا يكــون فجــأة قـــال: ﴿وِلا تَتَّبِعُــوا خُطُــواتِ الشُّــيْطان﴾ ولأنــه العــدو المحتجــب خلــف مجنَّـديـــه، ولربمــا جاء بثـوب الناصح، قـال محــذرا منــه: ﴿إِنَّـهُ لَكــم عَــدُوُّ مُبيــنُ﴾ ثــم هــدد سـبحانه مـن عـدل عنــه إلــى غيــره بالانتقــام فقال:﴿فَــإِنْ زَلَلْتُــمْ مِــنْ بَعْــدِ مَــا جَاءَتكُــمُ الْبَينِّـاَتُ فَاعْلَمُــوا أَنَّ اللَّهَ عَزيــزُ حَكِيــمُ﴾ [البقــرة: 208 - 209 ]، فاشــتملت الآيتــان على اسـم الطريـق ورسـمه وكيفيـة سـلوكه، واشـتملت أيضـا على لافتـات تنبيـه لـسـالـکــه، وتحذيــرات وتـهـديـــدات لـتــارکــه، فـمـــا أرشـــدها مـــن آيـــــات!.





وإنّ أحـبٌ أموالــي إلــيُّ بيرحــاء، وإنهــا صدقــة لله أرجــو برهــا وذخرهــا عنــد الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى" الحديث، قرعت الآية قلبه فقـام فتصـدق بأنفـس أموالــه، فلـم يكــن القــرآن بالنســبـة إليهــم مجــرد آيــات وتراتيـل تفتتـح بهـا المجالـس والاحتفـالات، ولكنـه كان هاديـا يهديهـم، وقائــدا تنقاد لـه نفوسـهم وجوارحهـم. ومـن خصائصهـم: شـدة ولائهـم وبرائهـم، فمـا إن يدخـــل الواحـــد منهـــم هـــذا الديـــن ويســـتقر في قلبـــه، إلا تحـــوّل مواليـــا للمؤمنيـن محبـا لهـم، متبرئـا مـن الكافريـن -كلّ الكافريـن- مبغضـا لهـم، يُبــدى لهــم أن ســبيله غيــر ســبيلهم، بــل البغضــاء شــعاره لهــم حتــى يُؤمنــوا بـالله وحــده، والنمــاذج في هــذا كثيــرة؛ كقصــة عمــر وسـعد بــن أبــي وقــاص وأبـــى ذر وحمـــزة وســعد بـــن معـــاذ وغيرهـــم رضـــى الله عنهـــم، وهـــذا برهـــان تحقيـق التوحيـد وفقهـه، وبـه كتـب الله لهـم الإيمـان. ومنهـا: التزامهـم الشـرع فى ســائر أمورهــم، وعــدم تحكيمهــم الأهــواء، ونبــذ صنيــع أهــل الجاهليـــة وعاداتها، ســواء في أحكامهــم وسياســاتهم، أو أموالهــم وعقودهــم وفســوخهم، أو أخلاقهـم، فــلا يأخــذون شــيئا مــن الديــن وشــيئا مــن الجاهليــة!، بــل كلّ مــن عنــد الله. ومنهــا: الصــدق فيمــا عاهــدوا الله عليــه، فــإنّ مجتمعــا غلــب عليــه الصــدق لهــو أشــد صلابــة مــن الجبــال، وإن مجتمعــا غلــب عليــه الكــذب لهــو أهون مـن بـيـت العـنـكـبــوت، فـشـيـمـتـهــم الـصــدق والـبــر فــى الـعـهــد، والصدق في القول، والصدق في الراية،





فكثيـرا مـا نسـمع: "لـن يصلـح آخـر هـذه الأمـة إلا بمـا صلـح بــه أولهــا" وهــى كلمــة حــق، ولكــن مــن أحــق بهــا؟ قــال النبــى صلــى الله عـليــه وســلم: (وإن أمتــى ســتفترق عـلى ثــلاث وســبعين ملــة، كلهــا في النــار إلا ملــة واحــدة قيــل: مـن هــي يــا رســول الله؟ قــال عليــه الصــلاة والســلام: مــا أنــا عليــه اليــوم وأصحابـــى)، فمقيـــاس الصـــلاح هـــو (مــا أنــا عـليـــه اليـــوم وأصحابـــى)، فمـا الـذي كان عليـه النبـي صلـي الله عليـه وسـلم وأصحابـه؟ ومـا الـذي تميّــز بــه ذلــك الجيــل حتــى صــار مقيــاس الرشــاد والســداد للأجيــال مــن بعــده؟ لقــد اختــص ذلــك الجيــل بخصائــص، وهــي محــل اســتطاعة العبــاد، فمنهــا: ارتباطهم الوثيـق بالقـرآن وانقيادهـم لـه والعمـل بـه مباشـرة، فهـم الذيـن "كانــوا لا يتجــاوزون العشــر آيــات، حتــى يعلمــوا مــا فيهــا مــن العلــم والعمــل"، فأَخْذهـم للقـرآن أُخْـذ عمـل، تنــزل الآيــة فيعملــون بهــا، مـع استشــعار أحدهــم أنـــه المُخَاطــب بهـــا أولا، فحينهــا يتغيّـــرون ويرتقـــون؛ ﴿وَإِذَا مَـــا أَنزلَـــتُ سُــــورَةُ فَمِنْهُـمْ مَـنْ يَقُــولُ أَيُّكُـمْ زَادَتْـهُ هَــذِهِ إِيمَانًـا فَأَمَّـا الَّذِيــنَ آمَنُــوا فَزَادَتْهُــمْ إِيمَانًــا وَهُـمْ يَسْتَبْشِـرُونَ﴾ ولمّــا نــزل قولــه تعالــى: ﴿ لَـنْ تَنَالُــوا الْبِـرَّ حَتَّــى تُنْفِقُــوا مِمَّــا تُحِبُّـونَ﴾ قـال أبــو طلحــة الأنصــاري رضــي الله عنـــه: "يــا رســول الله، إن الله يقــول: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾





وكل ما سبق من خصائص جيـل الصحابـة هـي مـن الواجبـات المتحتمـات على أمّــة ترجــو فتوحــات الصحابـة وأمجادهــم وانتصاراتهــم، وإنّ أمــة لا تـؤدي فرائـض ربهـا، لـن تســتطيع مجابهــة عدوهـا. وفي المقابـل، فــإن الضعـف والتــردي يكــون بهجــر ســبيل القــرآن علمـا وعمــلا وحُـكمـا، وتمييــع الــولاء والبــراء، وعــدم التــزام شــرع الله كليــا أو جزئيــا، والكــذب في الرايــة والبيــان، بالتلبيــس على النــاس وادّعــاء شــعارات لا عمــل بهــا، والنكــوص والتخــاذل حيــن الابتــلاء والتمحيــص، وتأخيــر الجماعــة ومحاربــة مشــروع الخلافــة. وإنّ الله لا يغيــر مـا بقــوم حتــى يُغيّــروا مـا بأنفسـهم، ولـن يأتــي النصـر بالتمنــي، ولا الســيادة بالرقـاد، وقــد وعــد الله ووعــده الصــدق، فقــال: ﴿يـَـا أَيُهـَـا الَّذِيــنُ آمَنُــوا إِنْ تَنْصُــرُوا اللَّه يَنْصُرْكُــمْ وَيُثَبِّـتْ أَقْدَامَكُــمْ﴾ ولـن يعجــز الله أن يهــلـك كل الكافريــن، ولكنــه كتــب الابتــلاء على عبــاده؛ ليبلوهـــم، ولــم يكلفهــم مــا لا طاقــة لهــم بـــه، ولكــن كلفهــم مــا تكرهــه نفوســهم؛ ليختبرهـم، وقــد أبلــى أوائــل هــذه الأمــة خيــرا، وســيُبلي آخرهــا بــلاء حســنا ليختبرهـم، وقــد أبلــى أوائــل هــذه الأمــة خيــرا، وســيُبلي آخرهــا بــلاء حســنا إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.







فهــذا ربعــی بــن عامــر رضــی الله عنــه يقــول لرســتم الفارســی حیــن ســأله: ما جاء بكم؟ قال: "الله جاء بنا لنخرج من شاء، من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومـن جـور الأديـان إلـى عــدل الإسـلام، فمـن قبـل ذلـك قبلنـا منــه، ومـن أبــى قاتلنــاه حتــى نفضــي إلــى موعــود الله". فتلـك الغايــة وهــذا الهــدف يُقــال لقائـــد جيـش الفـرس، ببيـان واضـح وحجــة جليّــة. ومنهــا: الثبــات في الملمــات وعــدم الانتكاســة والضعــف، كحالهــم في غــزوة الخنــدق وشــدتها، وحنيْــن وضيقتهــا، ويــوم الــردة ودهشــتها، فمــا فُجعــت الجزيــرة بالــردة، حتـــى رُدت دار إســلام في أُدنـى مُـدة، بسـيوف مصلتـة وهِمـم مُجـدّة. ومنهـا: الجماعـة ونبـذ الفرقـة، فلـم يطيقـوا تأخيـر الجماعــة والعيــش ولــو يومــا واحــدا بــلا إمــام وخليفــة، فمــا إنْ تأكــدوا مــن وفــاة رســول الله صلــى الله عليــه وســلم، حتـــى اجتمعــوا وأعطــوا البيعــة في الســقيفة؛ لأن في انفــراط الجماعــة انفــراط لعقــد الإســلام وضيــاع الدمـاء والأعـراض والأمـوال. فهـذه بعـض خصائـص جيـل الصحابــة، فمـن عمـل بهـا في كل زمـان، خــرج بهــذه الأمــة مــن وحــل الظلمــات إلــي شــاطئ النــور، فــذاك قطــز وهنــاك ابــن تاشــفين وهــذا محمــد بــن عبــد الوهــاب؛ وقــد ســار المجاهــدون اليـــوم عـلى دربهــم حـتـــى أقامـــوا دولـــة الإســـلام وأرســـوا دعـائـــم الخلافــة مــن جديــد في عهــد الشــيخ أبــي بكــر البغــدادي تقبلــه الله في الصالحيـن. فطريـق السِّـلم واحـدة، أول داخليهـا الأنبيـاء مـن لـدن آدم إلـى محمـد عليهم الصلاة والسلام ثـم مـن بعدهـم، وآيــات القـرآن هــى هــى منــذ نزولهــا فــي عـهــد الـنـبــوة، فـمــن رســا عـلــى الـطريــق بـلــغ الـغـايـــة الأسـمـــى.

